

مستقبل الأصولية مرهون بقدره الأنظمة على علمنة الدولة

الباحث حسن حماد لـ «العرب»: خطر الإرهاب الديني هو الأكثر تهديدا لدول المنطقة



انحسار الإسلام السياسي لا يعني نهايته

لا يعني انحسار أدوار الجماعات الإسلامية—ومنها على وجه التحديد جماعة الإخوان المسلمين في المنطقة—انتصارا نهائيا ومضمونا لمفهوم الدولة العلمانية، فجل الدول والمجتمعات العربية ما زالت محاطة بمخاطر خلط الدين بالسياسة وإلتهام الدين، لعدة أسباب ثقافية وحضارية وسياسية. كما أن غياب قادة الإسلام السياسي عن المشهد مؤخرا لأسباب عدة لا يعني البتة التخلص مما تركوه من أدبيات متطرفة، وكل هذا يتطلب احتشاد المثقفين والفكرين المناهضة هذه التيارات الإسلامية وخلق فلسفة جديدة تقود الدول وقادتها إلى علمنة أنظمتها وجعلها متسقة مع مبادئ الدولة المدنية الحديثة. هذا الطرح الفكري كان محل نقاش وحديث أدلى به الباحث المصري حسن حماد لصحيفة «العرب».

مصطفى عبيد
كاتب مصري

بلجنة الفلسفة في المجلس الأعلى للثقافة، وله مؤلفات ودراسات عديدة ومتنوعة من أهمها «الخيال اليوتوبي» و«النقد الفني وعلم الجمال» و«مفهوم العبث بين الفلسفة والفن» و«القديم» و«دوائر التحريم، السلطة، الجسد، والمقدس»، و«ذهنية التكفير.. الأصوليات الإسلامية والعنف المقدس». ونال جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عن دراسة بعنوان «محنة العبث ورحلة البحث عن خلاص».

بدأ الرجل هادئا، وهو يطرح أفكاره، وبلا انفعال، وباختيار دقيق ومقصود للكلمات حتى أنك تتصور أن كل كلمة تخرج منه تمر عبر عدة مختبرات تدقيق واستحسان، لتنتهي إلى أنها الأكثر تناسبا مع طرحه والأروع للتعبير عن مقصده.

قراءة لازمة للمستقبل

أكد حسن حماد في حوار مع «العرب» أن المثقفين مطالبون بالاحتشاد والتحاور والتشاور بشأن مستقبل الأصولية، وأن اعتقاد البعض في انحسار ظاهرة الإرهاب الديني بتواري بعض التيارات أو غياب صوتها تصور خاطئ، لأن الوجود الشعبي في مصر وفي الكثير من البلدان العربية ما زال مسكونا بالفكر الأصولي، ولا يعني غياب القيادات بالسجن أو الهرب توقف الخطر، فكم غابت تلك القيادات من قبل في عصور مضت؟

ويرى ببساطة أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر مثلا انتهت وجودها كتنظيم قوي، لكنها موجودة كفكرة، وتحتل الفرصة السانحة للعودة بقوة استغلالا لازمة الاقتصادية التي لا تجد حلا عمليا ناجحة. ومع المشكلات الحياتية المتعددة وفراغ الساحة السياسية، يتجه العامة نحو الحلول الغيبية أو المعجزات، لذا

«فكلما ضاقت الأرض اتسعت السماء»، لأن الناس يسعون إلى الفكر الديني لمواجهة الفقر والتخلف والضعف، وهو ما يمثل للأصولية فرصة للتغول والتسيد على المجتمع مرة أخرى. ورأى حماد أن الأصولية القابضة في مصر تحت لافتات غير سياسية تتحيز فرصة الظهور للعلن في أي لحظة من لحظات الضعف، «إنها ليست قاصرة على مصر وإنما هي ممتدة في المجتمعات العربية على المستويات الشعبية، من خلال جمعيات أهلية ودعوية رسمية في كثير من الأحيان».

وأضاف أنه مندهش من رؤية جماعات سلفية تعمل بتصريح من وزارة الأوقاف في مصر، باعتبارها جمعيات أهلية رسمية، ولا فرق بين كل من الفكر الإخواني والتصور السلفي ونظيره الجهادي، والتباينات مقصورة على الممارسات، لكن جميع التيارات الدينية تتفق مع فكرة الحاكمية، وحلم الخلافة، وتطبيق الشريعة. كما تتفق أيضا مع الموقف من الآخر والمرأة والديمقراطية.

بالطبع، تلك سمة طبيعية في العقل الأصولي، لكونه عقلا «دوغماتيا» لديه اعتقاد مطلق في امتلاك الحقيقة، ومن ثم فإن كل من هو غيره كافر أو على ضلال، وذلك موجود في كل الأصوليات سواء أكانت أصوليات إسلامية أم أصوليات أخرى.

وذكر أن «الداعشي» يتصور أن الله أقرب إليه من أي شخص آخر، ويؤمن أنه يقتل الناس في سبيل الله، وليس غريبا أن تجد سلفيا يكفر الإخواني، وقد تجد داعشيا يكفر السلفيين، والعكس صحيح أيضا، لأن الكل يعتقدون أنهم أصحاب الحق المطلق، وحتى في تاريخ الإسلام نجد أن كل فريق يفترض أنه على حق، والآخر على باطل.

استدعى حسن حماد رواية الروائي الإيطالي إمبرتو إيكو المعنونة بـ«اسم الورد» ليشير إلى بيورغي سيد الدبر، وهو من يرى نفسه خازن المعرفة الذي لا يكتب باحتكارها وتحريمها، بل يتجاوز ذلك إلى الحكم بإعدام كل من يقترب منها، فانتهى به الأمر في نهاية المطاف إلى حرق الدبر نفسه الذي أراد أن يصونه.

لكن قبل أن يموت استمع إلى عبارات نقيضه الذي كان يؤمن بالتسامح دي بارسكافريل التي تقول «الشیطان ليس أمير المادة، الشيطان هو صلف الفكرة، هو الإيمان دون ابتسام، هو الحقيقة التي لا يعترفها الشك».

ويكذب الأصولي باسم الله، يكره، يحرّض، يقتل، يدمر، ويرتكب الجرائم الإنسانية بتصور أنه ظل الله على الأرض. وليس أدل على ذلك من استدعاء تبريرات القتل من جماعات الإسلام السياسي تجاه خصومهم.

ومن ذلك ما ورد في كتاب «النظام الخاص للإخوان المسلمين» للكاتبة سوزان حرفي، حول قيام الإخوان باعتقال محمود فهمي النقراشي رئيس وزراء مصر سنة 1948 بعد قراره بحل جماعة الإخوان، وما ذكره شباب الإخوان من تبريرات تصل إلى حد الاعتقاد في أنهم يطلقون مراد الله، ومنهم يوسف القرضاوي الذي كان أحد أسباب الجماعة وقتها، وكتب شعرا يمدح فيه عبدالمجيد حسن، قاتل النقراشي، قال فيه «عبدالمجيد حجة وسلاما/ أبشر فإنك للشباب إماما/ سممت كليا جاء كلب بعده/ ولكل كلب عندا سماما».

واجب الدولة

رغم صمود الأصولية وتناميها المستتر، إلا أن هناك فرصا لمقاومتها وتفكيكها وشل قدراتها التخريبية من خلال عمل مؤسسي منظم تقوم به الأنظمة الحاكمة في العالم العربي. وحول ذلك شدد حسن حماد على أن مستقبل جماعات الإسلام السياسي مرهون بقدره الأنظمة الحاكمة على علمنة مؤسسات الدولة بجرأة وحسم حقيقيين.

و ضرب مثلا الدستور المصري الذي تنص مادته الثانية على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، معتبرا ذلك خضوعا للمد الأصولي وابتعادا عن العلمانية الحقيقية، مكررا أن العلمنة ليست كفرا أو خروجا عن الدين بقدر ما هي تنزيه له.

وأوصى بإلغاء تلك المادة تماما، لأنها تبقى ذريعة لدى التيارات الدينية المختلفة للتدخل في شؤون السياسة، وعلى الأنظمة السياسية مساندة وجود تيارات سياسية فاعلة في الشارع، وذلك لا يضعف قوة النظام أبدا، وتلك القوة هي المدنية المتنوعة بمختلف فروعها، يمينية أو يسارية أو وسطية، مع الحذر الشديد من السماح بإنشاء أحزاب ذات مرجعية دينية.

ميلاد فلسفة عربية

وطالب حماد بضرورة تحرير الفكر والإبداع تحريرا كاملا وحقيقيا دون قيود، مع منع توغل المؤسسات الدينية في الحياة المدنية، وقال مفضلا رأيه «ليس لدي مانع في إنشاء مؤسسات تعليمية لاهوتية، أو الإبقاء على بعض المؤسسات التقليدية القائمة، لكن لا ينبغي لهذه المؤسسات أن تتدخل في شؤون الثقافة والإبداع أو غيرها».

وأضاف أن الأزهر مؤسسة تعليمية فقط، ونحن جميعا نحترمها ونقدر مكانتها، لكن ليس لها الحق في أن تتجاوز نطاق التعليم إلى مناحي الحياة. ولف الحوار إلى الطرح المكرر—سواء من جانب الدولة أو من جانب بعض المؤسسات الدينية—الذي يناهز بتجديد الخطاب الديني، واعتبر حماد أنه من السذاجة تصور أن تخلى المؤسسات الدينية عن مكانتها وهيمتها ونفوذها، لافتا إلى أن لعبة المصطلحات خادعة، وأنه يجب تحجيم الخطاب الديني أو تغييره، بمعنى وقف تغوله على الجوانب السياسية والحياتية.

وقال حسن حماد، إنه إذا نحرر الخطاب السياسي وتقدم الخطاب الثقافي تجدد الخطاب الديني، وتحول إلى خطاب أكثر تحضرا.

تأثرت مناحي الفكر العربي خلال العقود الماضية بتمدد الأصولية، وتراجع الطروحات العلمية والفلسفية الخلاقة الرامية إلى تطوير الإنسان وتحديثه، وإذا كان الكثير من المثقفين يلومون أساتذة الفلسفة وياخذونها على عدم طرح أفكار ورؤى عربية معاصرة، فإن حسن حماد يرد على هذا اللوم بصراحة شديدة قائلا «إن الخوف ما زال مقيدا للأدغة». وأكد أن الحالة العربية الراهنة لا تنشئ تفكيرا فلسفيا حقيقيا، فطالما الخوف يسيطر على العقول—خاصة الخوف من القديسات—سنبقى بعيدين تماما عن المبادرة بالطرح أو التخصص في أفكار جديدة من أجل الإنسان، ولا بد من التحرر الكامل والتفكير بلا قيود».

حسن حماد مفكر مصري
مناهض لتيار الإسلام
السياسي، توصف أراؤه بأنها
جريئة جدا، وتعتبر كتاباته
تفنيدا عقليا لمخاطر خلط
الدين بالسياسة



المؤسف أن المنطق العربي الجمعي ما زال يفكر من منطلق لاهوتي. وما زال يضع في حساباته منطق القبيلة والذكورة ومسلمات المجتمع.

وذكر حماد أن هناك محاولات نادرة لعلماء وباحثي الفلسفة خاصة في دول شمال أفريقيا، لكنها جميعا محاولات لا ترقى إلى مرحلة إنتاج فلاسفة جدد. وأوضح أنه من الغريب أن معظم الباحثين الأجلاء الذين طرحوا أفكارا تقدمية رائعة مثل محمد أركون، ومحمد عابد الجابري، وجورج طرابيشي، وحسن حنفي، ونصر حامد أبو زيد، تدور معظم محاولاتهم حول الدين، ما جعل النقاشات اللاهوتية تشغلهم أكثر من الأفكار بشأن الحرية أو الإنسان. «لقد ظلوا أسرى ثقافة الجدل بتعبير أستاذ الفلسفة»، بتعبير الفيلسوف الراحل الدكتور صلاح قنصوة.

وحول أطروحات البعض لاستدعاء قيم مدرسة المعتزلة الإسلامية أو أفكار ابن رشد الخاصة بالتسامح لنبدأ التعصب، قال حماد «أنا ضد استدعاء رؤى أو تراث أي فصيل من الماضي أو طرح أفكار سلفية تقول إننا بحاجة إلى ابن رشد أو غيره، لأن الواقع في العالم العربي تجاوز كل الأفكار الماضية، وحتى التفسير الذي ما زلنا ننشر به تجاوزته أوروبا تماما ووصل الأمر إلى أن الباحثين الجدد قاموا بانتقاد العقل نفسه وتفكيك طروحات التنوير والحداثة وغيرها من الطروحات الأخرى».



توق عربي للحرية والتحرر